القـــرآن الكريـــم
طبيعتـــه ووظيـفتـــه

الدكتور الشاهد البوشيخي

القرآن الكريم طبيعته ووظيفته

□ محاضرة ألقاها: الدكتور الشاهد البوشيخي في رمضان 1412 هـ.
□ أعدها للنشر: الأستاذ المفضل فلواتي.
□ أشرف على طبعها: محمد البنعيادي.
□ **الطبعة الخامسة ربيع الثاني 1422 يوليوز 2001**
□ منشورات جريدة المحجة.
□ الإيداع القانوني: 2001-363.
□ مطبعة أنفو- برانت، 12، شارع القادسية - فاس. ☎: 26 17 64 (055)

تـقـديــم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وعلى كل التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد . فقد عزمتْ أسرة جريدة "**المحجة**" أن تُخْرج رسائل باسم "**رسائل الهدى**" إحياء للرسالة التي قامت بها مجلة "الهدى" في زمن عزَّ فيه القلم الإسلامي، والفكر الإسلامي، والجهاد الإسلامي بالكلمة الصادقة المخلصة في هذه الديار، حيث كانت صوتا مجلجلا بالحق في غير ما تَحَامُلٍ ولا شَطَطٍ ولا إسراف.

وبما أن كتاب الله تعالى هو خير ما يُبْدأ به في كل شيء، وخير ما يُسْتَفْتَحُ به في كُلّ عمل أو مشروع، لأنه النور الذي ينير طريق العلم والعمل، وطريق الهدى والرشاد، وطريق الصلاح والفلاح، فقد ارتأينا أن نفتتح هذه الرسائل بنشر بعض المجهودات المشكورة التي يبذلها أخونا الكبير، وأستاذنا الفاضل الدكتور الشاهد البوشيخي في مجال المحاضرات

والدراسات والمدارسات القرآنية على كافة المستويات دَعْوَةً وتفهيما، وتقعيداً وتأصيلاً وتنظيرا، وتفقيها، وإشرافا على التحقيقات لمختلف التفسيرات واستنتاجا واستنباطا للمناهج الدعوية الأصيلة من روح المعاني والمقاصد القرآنية الكفيلة بوضع المسلمين على الصراط المستقيم إن هم أحسنوا التَّدَبُّر لكتاب الله عز وجل، والعمل وفق هداه.

ومن تلك المجهودات عدد من المحاضرات التي ألقاها أخونا في عدة مواضيع تتصل بالقرآن العظيم، حثا على تدبره، أو إبرازا لروحه، أو دعوة للأمة إلى العودة إليه، مازالت كلها في الشرائط تنتظر الإخراج.

نرجو الله تعالى أن يكون هذا البدء بنشر أولاها إيذانا ببعثها في تلمس القلوب الظمئة للنهل من النبع القرآني الصافي عندما تحس بِحَرَارَةِ الكلمة الدَّافعة، وصدق اللهجة المُبَيِّنَة، ورَوْعَةِ النَّبْرَةِ الهادفة.

زاد الله أخانا بسطة في العلم والفهم وجعله وإيانا وجميع المسلمين من حَمَلَةِ راية القرآن في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين، فاللهم اجعلنا من أهل القرآن، ومع أهل القرآن، العاملين بالقرآن، الداعين بالقرآن إلى القرآن، الجامعين لشمل الأمة بالقرآن.

وتقبل منا، ومن المحاضر الكريم، ومن كل من أسهم في هذا العمل أي إسهام، وجعل ذلك كله خالصا لوجهه الكريم.

آمين، والحمد لله رب العالمين.

المفضل فلواتي
مدير جريدة المحجة


قد جاءكم من الله
نور وكتاب مبين
يهدي به الله
من اتبع رضوانه
سبل السلام ويخرجهم
من الظلمات إلى النور
بإذنه ويهديهم
إلى صراط مستقيم
سورة المائدة 16 - 15

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"مثل ما بعثني الله بـه من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب؛ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله بـه، فعلم و علم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"

رواه البخاري في كتاب العلم حديث رقم 77

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن

الرحيم، ملك يوم الدين، إياك

نعبد وإياك نستعين، اهدنا

الصراط المستقيم، صراط الذين

أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم

ولا الضالين.

آميـــن

سورة الفاتحة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . اللهم افتح لنا أبواب الرحمة، وانطقنا بالحكمة، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة.

إخواني الكرام:

إنني ما جئت اليوم معلما ، ولا جئت مفسرا ، ولا جئت عارض بضاعة كثرت عندي، وإنما سعيت كما سعيتم إلى مجلس يتلى فيه كتاب الله عز وجل، ويجتمع فيه على مائدة القرآن، مجلس تبحث عنه الملائكة وتسعى إليه، ملتمسا مثلكم حياة قلبي بالقرآن، وتنور بصيرتي بالقرآن، وهداية تخرجني من الظلمات إلى النور بالقرآن، وشفاء لجميع أدوائي الظاهرة والباطنة بالقرآن، ورحمة لي ولكم وللأمة جمعاء والعالمين أجمعين بالقرآن.

1- القرآن غذاء الروح:

إخواني، إن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الإنسان من عنصرين: خلقه من طين، حتى إذا سواه نفخ فيه من روحه. خلقه من طين، ثم من روح. الجانب الطيني في الإنسان له غذاء، والجانب الروحي فيه له غذاء آخر يخالف الغذاء الأول. الجانب الطيني مرده إلى هذه الأرض، منها خلقنا، ومنها نغذي هذا القسم فينا من جميع ما في هذه الأرض. فمن نباتها ومن حيوانها، ومما فيها وما عليها وما حولها من هواء، وغير ذلك من مواد، يغذى هذا القسم الطيني فينا، ولكن الذي يسير هذا القسم الطيني فينا هو القسم الآخر الروحي الذي هو من الله عز وجل، ومن أمر الله سبحانه «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»[1] هو من أمر الله عز وجل، هذا القسم بم يتغذى؟ وهو القسم الذي يحكم ويسير القسم الآخر، فعلى

1- سورة الإسراء: 85

حسب ظلمته ونورانيته يكون هذا التوجيه لهذا الجسد، ذلك القسم مم يتغذى؟ إنما غذاؤه من حيث جاء، أي من الله عز وجل؛ فالله عز وجل رحمة بنا حين خلقنا واستخلف أبانا آدم في هذه الأرض، ثم استخلف ذريته من بعده، وجعلهم خلائف في الأرض، رحمة بنا أنزل هدى من عنده، أنزل غذاء من عنده لهذه الأرواح. هذا الغذاء إذا تم تناوله وفق جرعات معينة، وفق نظام معين، أثمر ثمرته، وغذى هذه الأرواح فعلا، واستطاعت أن تقوم بوظيفة الخلافة في هذه الأرض، وتضطلع بكل ما استخلفت فيه بقوة وأمانة. أما إذا لم تتغذ بهذا الغذاء الرباني فإنها تموت، تجوع ثم تجوع ثم تموت نهائيا. فإذا ماتت أصبح الطين من الناحية العملية هو المهيمن، وأصبحت الافكار التي يجب أن تكون في مستوى نوراني عال أصبحت أيضا ارضية، أصبحت طينية كذلك، واصبح الإنسان أبعد ما يكون عن أن يقوم بالخلافة في الأرض .

2- القرآن هو الكتاب في صورته الكاملة:

هذا الغذاء النازل من عند الله عز وجل، عبر مراحل، ومراحل منذ آدم عليه السلام، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الغذاء الذي تتم به التغذية فعلا هو الوحي، الوحي الذي جاء من عند الله عز وجل، مقسطا في رسالات، يعتبر مجموعها هو الدين الذي نزل على مراحل، حسب درجة نمو هذا الإنسان الفرد، والإنسان المجتمع، والإنسان النوع. فعلى حسب المراحل التي مر بها هذا الإنسان، كان الهدى النازل إليه ملائما للفترة التاريخية التي يمر بها، حتى إذا وصل الإنسان في نموه واستعداده الفردي والجماعي إلى درجة يصير فيها مؤهلا لأن ينزل عليه الهدى كاملا، نزل الكتاب، نزل كتاب الله عز وجل بكامله، لا بعض منه، نزل مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. السابقون إنما أوتوا نصيبا من الكتاب، أما الآن فقد نزل الكتاب بكامله للإنسانية في الصورة النموذجية، بعد أن بلغ الإنسان رشده، وبلغ أشده، وصار صالحا لأن يحمل الأمانة، متفاعلا معها مباشرة، يواجه وقائع الظروف والأحداث والزمان، يواجهها متفاعلا مع ذلك الهدى مستجيبا لما يجب عن طريق الاجتهاد.

3- القرآن للقلوب كالغيث للأرض:

هذا الهدى والغذاء الذي هو الكتاب وهو القرآن، يصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزله مشبها له بغيث قائلا: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا...» ثم يعطينا ثلاثة أصناف من الأرضين: «طائفة طيبة؛ قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير»، وطائفة إنما هي «أجادب: أمسكت الماء» ولم تنتفع به، لكن «نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا»، وطائفة ثالثة «إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ».

ثم يقول: «فذلك مثل من فُقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلِمَ وعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم.

فطبيعة هذا الهدى إذن كطبيعة الغيث. هو كالماء فعلا بالنسبة إلى القلوب: قلوب أبناء آدم، ينزل فيها الماء الرباني فتحيى، يفعل فيها -إذا قبلته- فعل الماء في الأرض الخصبة، والقلوب الطيبة فعلا تقبل هذا الهدى فتزكو، فينتج عن ذلك أثر في الفكر، وأثر في السلوك، وأثر في الحياة

الخاصة والعامة التي تحيط بالشخص، وتحيط بعد بالجماعة التي تغذت بهذا الماء، فتحدث الحياة، وتحدث مظاهر الحياة وخصائصها كلها.

الماء يحدث الحياة في الأرض الطيبة، ويرى أثر تلك الحياة بارزا فيما أنتجت تلك الأرض : تهتز، تربو، تُخْرِجُ من كل زوج بهيج... ومثل ذلك الأثر بالضبط أيضا يحدثه الهدى النازل في القلوب، إذا قبلته القلوب، إذا انفتحت أبواب القلوب لهذا الهدى، وتغذت بهذا الماء الرباني. فإنه يحدث ذلك الأثر الذي هو الحياة. « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها »[1]!

1- سورة الأنعام، الآية:123.

تنوير القرآن للإنسان

القرآن نور:

وأول أثر لهذا الغذاء انه يحيي هذا الكائن الذي يتغذى به، فيصبح سليم الحواس، ويستقبل ما حوله من مؤثرات استقبالا صحيحا، ويستجيب لها استجابة صحيحة. فيحدث له بسبب ذلك تنور «... وجعلنا له نورا...». «... قد جاءكم من الله نور...» وفي هذا تحديد لطبيعة هذا القرآن، وتحديد لطبيعة هذا الكتاب النازل من عند الله عز وجل، طبيعته أنه نور، ووظيفة النور العادية أن يكشف كل شيء على حقيقته، فسليم الحواس الحي يستطيع الإبصار إذن للمبصرات بوضوح، ويستطيع السمع للمسموعات بوضوح، ويستطيع الشم للمشمومات بوضوح... وهكذا، فكل ما هو قابل للإدراك في الصورة الطبيعية العادية يستطيع سليم الحواس الحي بالماء النازل عليه من الله عز وجل المحيي لقلبه أن يدركه، يستطيع بوجود النور أن يرى الاشياء كما هي، بدءا من الحقيقة

العظمى التي منها كل شيء، وإليها يرجع كل شيء، وبها قائم كل شيء، وإليها مصير كل شيء: الله عز وجل.

فالله جل جلاله أول ما يُدْرَكُ، وأول ما يُدْرِكُ هذا الكائن الذي حيي، الكائن الذي خرج من الموت إلى الحياة بسبب هذا النفخ الرباني فيه، أول ما يُدْرِكُ هذه الحقيقة الكبرى، يُدْرِكُ الله عز وجل، يعرف الله عز وجل، وتلك بداية الخير كله، من عرف الله فقد عرف كل شيء، ومن فاتته معرفة الله فقد فاته كل شيء.

فالكائن الحي السليم الحواس بسبب هذا القوت النازل، بسبب هذا الماء النازل من عند الله عز وجل، أقول: يجعل الله له نورا، وبواسطة ذلك النور يرى الاشياء كما هي، رؤية الاشياء كما هي، ينتج عنها أيضا بصورة طبيعية الدرجة الموالية، والرتبة الثالثة بعد الحياة والتنور، وهي رتبة الاهتداء.

1- النور سبب الاهتداء لمن استنار به:

فالعبد فعلا يعرف طريقه، يبصر طريقه، يهتدي بهدى الله عز وجل. ذلك بأن السليم الحواس إذا رأى حفرة أمامه هل يضع رجله فيها ، وهي حفرة كبيرة عميقة، إذا وضع رجله فيها هلك؟! هل سليم الحواس يستطيع ذلك فعلا؟ ويجرؤ هذه الجرأة؟ ويقدم على هذه المغامرة؟ فيضع رجله وهو يرى هذه الحفرة بوضوح في ضوء النور، هل يضع رجله فيها ليهلك؟ كلا ثم كلا. لا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا لم يكن نور نهائيا ، أو كان هناك ما يمنع من التنور بهذا النور، كما إذا كان هناك جنون أو غيبوبة، أو أن الحواس غير سليمة، فيها مرض.

2- انواع القلوب في علاقتها بالنور:

والقلوب أنواع:

<u>أما قلب المومن الصادق</u>، -نسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم من المومنين الصادقين- فمثل السراج يزهر بالإيمان.

وأما قلب الكافر فهو كالكوز مُجَخِّياً كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، لا يعرف منكرا من معروف، ولا معروفا من منكر، يمشي منكسا على رأسه. «أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم»(1) فالكافر لا يستطيع الرؤية لأن على بصره غشاوة. «إن الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة...»(2) الحواس الأساسية هي هاته. «قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون»(3)

فالسمع والأبصار توصل إلى القلب الذي يعطي ما ينبغي، يحلل معطيات الحواس ليكون الموقف السديد السليم، فإذا ختم الله على السمع والبصر، أي وضع طابعا يسد به هذه الأسماع وهذه الأبصار، وهذه القلوب كيف يمكن أن يصل إليها النور؟! كيف يمكن بعد ذلك أن ترى وتبصر الطريق؟ ألاَ لا

1- سورة الملك: 22

2- سورة البقرة: 6-7

3- سورة الملك: 23

هداية لكافر، ولا سبيل إلى أن يهتدي، مادام مصرا على كفره، لأنه مُغْلِقٌ للوسائل التي ينفذ منها النور الرباني إليه، هو مغلق لها ساد لمنافذها

والقلب الثالث هو القلب المريض الذي تعتريه الصحة والفساد، فيه جانب صحيح، وجانب فاسد، فهو بحسب ما غلب عليه.

فالقلب المؤمن يبصر الطريق بلا إشكال، والقلب الكافر لن يبصر الطريق بلا اشكال، والقلب المريض مضطرب بين ذلك، يبصر بعضا، ولا يبصر بعضا.

فهذه الرتبة الثالثة هي رتبة الاهتداء، والتي مردها إلى ذلك الغذاء الأصل، الذي هو كتاب الله عز وجل، القرآن الكريم، هذه الرتبة تنتج نتاجا طبيعيا عن الرتبة الثانية التي هي رتبة النور، فيبصر الإنسان طريقه، ويميز الطيب من الخبيث، ويميز الحلال من الحرام، ويميز الصالح من الفاسد، ويميز المفسد من المصلح، ويميز كل شيء، ويتضح له الطريق طريق الحق، والصراط المستقيم.

3- القرآن هدى لمن اتبعه:

ومن هاهنا كانت هذه الصفة للقرآن بعد صفة النور، أنه هدى، «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء»[1]. «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»[2] «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس»[3] فهو أيضا من حيث طبيعته عبارة عن هدى: هداية، إرشاد، دلالة توضح الطريق كل الوضوح في ضوء النور الموجود. أما إذا لم يكن نور فلا سبيل، ولذلك قالت الآية الكريمة: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام»[4] أما إذا لم يتبع فلا سبيل إلى هدايته بهذا النور، لأنه لا يمكن أن يرى، فإذا أغمضنا أعيننا والنور قوي موجود، لكن العين عليها غشاوة، العين مغمضة، فإننا لا نبصر شيئا ولو مع وجود النور، لكون هذا النور نفسه لا سبيل إليه إلا بالاتباع،

1- سورة فصلت: 44

2- سورة البقرة: 1

3- سورة البقرة: 185

4- سورة المائدة: 6

فلا اهتداء إلا بالاتباع «يهدي به الله من اتبع» لا سواه، فردا كان أو جماعة أو مجتمعا أو نوعا، و«من اتبع» رضوان الله، لا سخط الله.

ففي القرآن -والقرآن مثاني- النظائر، فيه الخير والشر، فيه الترغيب والترهيب، فيه وصف الكفر وفيه وصف الإيمان، كله نظائر ومثاني. «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله...»[1] وإنما يهدي به الله من اتبع رضوانه، لا الذي اتبع سخطه. وترغيبا في هذا الاهتداء إلى أقصى حد، كان التعبير بالرضوان لا بالرضى فقط «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام»، لأن الذي تحرى اتباع الأرضى لله عز وجل لاشك أنه الأهدى: وأنه الأرشد، وأنه الأكثر حظا وانتفاعا بهذا الهدى الذي جاء من عند الله عز وجل.

1- سورة الزمر: 17

4- الهداية هي أول مطلوب:

ونتيجة البصر بالطريق نصل إلى الهدى، وأنتم تعلمون أن هذا الكتاب فرض الله علينا فيه فرضا كل يوم: دعاءً كل يوم، ولهذا الدعاء محور واحد يتكرر إجباريا بالنسبة للمؤمن سبع عشرة مرة، هو: «اهدنا الصراط المستقيم» فالذي لم يهتد إلى الصراط المستقيم، ضل في الدنيا وهلك في الآخرة، ضل في الدنيا وشقي، وضل في الآخرة وشقي كذلك. الذي لم يهتد خسر الخسران المبين. فكون الإنسان جاعَ، أو عَرِيَ، أو مَرِضَ، إلى غير ذلك من العوارض التي تعرض للإنسان، كل ذلك هين بالنسبة إلى الأمر الجلل: أن لا يهتدي، بخلاف ما إذا اهتدى، فمع الجوع والعُرْيُ، ومع أي احتمال آخر يمكن أن يكون، فقد فاز فوزا عظيما. على أنه إذا اهتدى بالنور الرباني، فبإذن الله عز وجل لن يجوع ولن يَعْرَى إلا ابتلاء وفتنة إلى حين. نعم هناك «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين...»[1] نعم قد يقع البلاء

1- سورة البقرة: 155

بشيء من ذلك، ولكنه عارض وعاقبته حميدة، أما الذي ضل ولم يعرف الصراط، ولم يعرف الطريق، ولم يهتد إلى المنهج -وما جاء الدين إلا ليوضح هذا المنهج- الذي ضل ولم يعرف الصراط، مهما تَمَتَّعَ تَـمَتُّعَ الأنعام في الدنيا، فإنه قد خسر خسرانا مبينا في حياته الأخرى التي هي الحياة «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»(1)

1- سورة العنكبوت: 64

إخراج القرآن للإنسان من الظلمات إلى النور

1- بالقرآن يتم إنقاذ الإنسان.

أقول: بعد الاهتداء نصل إلى رتبة رابعة يرشد إليها القرآن أيضا في تحديد وظيفته، وهي نتيجة طبيعية أيضا في تَرَتُّبِها على ما قبلها، تلكم أنه يحدث -بسبب هذا الاهتداء إلى الصراط المستقيم- الخروج من الظلمات إلى النور. «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه»[1] سبل السلام في الدنيا والآخرة، فالجنة كما تعلمون هي دار السلام، والله يدعو إلى دار السلام، وسبل السلام كثيرة في كل مناحي الحياة، كثيرة جدا، يهتدي إليها من اتبع رضوان الله، فردا، أو جماعة، أو مجتمعا، أو نوعا، يهتدي إليه في كل مجالات الحياة إن اتبع رضوان الله، وبسبب ذلك يحدث له الخروج الكامل من الظلمات بجميع أشكالها وألوانها: ظلمات القلب، ظلمات الفكر، ظلمات

1- سورة المائدة: 6

القول، ظلمات العمل، الظلمات التي تكون في الحالة الفردية، والظلمات التي تكون في الحالة الاجتماعية على أي مستوى كانت، ومن أي لون كانت، يحدث للعبد بسبب الاهتداء الخروج منها بفضل الله عز وجل.

2- الظلمات ألوان والنور واحد.

«يخرجهم من الظلمات إلى النور» الظلمات جمع، فهي أشكال وألوان، وتدل على أن صور الضلال، وصور الفساد، وصور الفسق، وصور الكفر، وصور الإلحاد، وصور التيه... أشكال وألوان لا عَدَّ لها ولا حصر، ولكن طريق الحق واحد، ومصدره واحد، «الله نور السموات والأرض»[1]، والذي يَخْرُج من الظلمات يَخْرُج إلى الله عز وجل، «ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين»[2] يخرج إلى النور، وإلى أثر النور في الواقع، الله عز وجل هو نور السموات والأرض، وهذا الكتاب هو نور من الله عز وجل، «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم»[3]

1- سورة النور: 35
2- سورة الذاريات: 50
3- سورة التوبة: 32

هذا الذي جاء منه سبحانه كان نورا فعلا، نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أضاء المنطقة التي ظهر بها، واستمرت إضاءته لما حولها في كل نقطة حل بها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب اتباعه للقرآن صار هو نفسه كذلك مصدرا نورانيا، كما قال الله عز وجل: «ياأيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا»(1).

نعم، (سراجا منيرا)، فهذه الإنارة الموجودة في رسول الله صلى الله عليه وسلم هي نازلة عليه من الله عز وجل، هي هذا القرآن الذي هو محض نور هكذا: «قد جاءكم من الله نور»(2)، «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا»(3)، «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه»(4). هذا النور نازل من عند الله عز وجل، وإليه يتم الخروج من جميع الظلمات، وبه يتم الخروج أيضا من جميع الظلمات.

1- سورة الأحزاب: 46
2- سورة المائدة: 15
3- سورة التغابن: 8
4- سورة الأعراف: 197

«يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه»[1] بقدرته، بحوله، بِطَوْلِهِ، بمشيئته، فلا أحد ينتقل من شر إلى خير إلا بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى.

ومن هنا نصل -عندما يتم هذا الخروج تلقائيا- إلى صفة أخرى يرشد إليها القرآن أنها من طبيعته ومن وظيفته هي صفة الشفاء وصفة الرحمة. «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة»[2]

1- سورة المائدة: 16
2- سورة الإسراء: 82

شفاء القرآن للإنسان

القرآن وظما الإنسان:

الشفاء في الحقيقة مرحلة سابقة للرحمة، ترشد إلى هذا العطش وهذا الظمأ الذي للكائن البشري للحقيقة الربانية.

في كل منا تعطُّشٌ إلى معرفة الأشياء كما هي، ولا يتم الشفاء من ذلك على وجهه الصحيح إلا بالقرآن، لكن القرآن لا يفضي ببعض سره إلا مع التدبر، «أفلا يتدبرون القرآن»(1)، وقد استنكر الله علينا هذا مرتين في كتابه عز وجل الذي هو «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته»(2)

إذا لم يقع التدبر فلن يقع قطعا الوصول إلى المقصود، ولن يُظْفَر بالمراد من كتاب الله عز وجل.

1- سورة محمد: 28

2- سورة ص: 29

فهذا القلق النفسي، وهذا الظمأ وهذا العطش للحقائق الكبرى والعليا سواء تعلقت بالمنشأ أو بالمآل، أو تعلقت بالغيب المواجه في كل لحظة، الغيب العاجل، أو الغيب الآجل، أو تعلقت بما في الأرض، أو بما في السماء، كل ذلك الشفاء منه موجود في كتاب الله عز وجل.

رحمة القرآن للإنسان

1- كل ما تقدم من الخصائص والوظائف سبب رحمة:

إن القرآن الكريم يصير بسبب كل هذا رحمة: بسبب إحيائه للكائن البشري بعد موات، وبسبب تنويره له بعد ظلمة، وبسبب هدايته له بعد ضلال، وبسبب إخراجه له من الظلمات إلى النور، وبسبب شفائه له من كل داء، بسبب ذلك يصل العبد إلى المرحلة التي يُدْخَل بها في الرحمة، وهي الدرجة العليا في الدنيا والآخرة.

انظر إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجلس تدارس القرآن «ما اجتمع قوم»[1] على أي شكل كان هؤلاء القوم، «في بيت من بيوت الله»، والأرض كلها بيت الله، حقا، ان بيوت الله تلك التي أذن فيها أن ترفع، ولكن الأرض أيضا جعلت لنا مسجدا وطهورا، وهذا من خصوصيات

1- رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، حديث 4867.

رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

التلاوة لكتاب الله عز وجل في حد ذاتها هي بدء نزول الغيث الرباني، غيث الهدى والعلم والرحمة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما كان يفعل بالإنسان الذي يأتي إليه مستهديا يقرأ عليه القرآن، يتلو عليه القرآن، فللقرآن بمجرد تلاوته تأثير خاص، وله فضل كبير على العبد التالي نفسه، «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن الف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(1).

والمتلو عليه القرآن إذا قدر له أن يستمع وينصت فإن الرحمة تتنزل في قلبه بمجرد ذلك، «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»(2) وإن هاته الرحمة تنزل عليه في قلبه سكينة ونورا، وأمنا وأمانا، وعلما وفهما، تتنزل

1- سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن، حديث 2835 (انفرد به).
2- سورة الأعراف: 204

عليه بمجرد التلاوة أحيانا إذا ألقى العبد السمع وهو شهيد، أي شديد الحضور، لا منصرفا عما يُتْلَى، لا غائبا عما يُتْلَى، بل حاضر شديد الحضور، كما جاء في كتاب الله عز وجل: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[1]، أي حاضر جدا.

2- كيف نُرحم ونَرحم بالقرآن:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئ بهذه التلاوة في تفهيم المراد من هذا القرآن، لأنه قبل أن نعرف المراد من هذا القرآن لا يمكن أن نطبقه، هذه رسالة جاءت من عند رب العزة، قبل أن نعرف محتواها هل نستطيع الإجابة عنها؟ أو نستطيع الاستجابة لها؟ لا يمكن، ولا سبيل إلى ذلك.

ينبغي أولا التلقي بقلب حاضر، وبعد ذلك يأتي تعلم المراد من ذلك المُلْقَى، تعلم المراد، ثم تعلم كيفية العمل بذلك المراد، وهو تعلم الحكمة، ثم تأتي الممارسة، وكانت تراقب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزكية لصاحبها.

1- سورة ق: 37

إذا حدث ذلك في مجلس من المجالس، اجتماع فتلاوة، فتدارس، ما الذي يحدث من النتائج؟ «نزلت عليهم السكينة» والسكينة إذا نزلت في القلب ازداد العبد بها إيمانا «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم»[1]، ثم «غشيتهم الرحمة» أي صارت بمثابة غشاء يغطي أهل المجلس، وهذا الذي أردت من هذا الحديث، أنَّا نُدْخَلُ بسبب القرآن في الرحمة، والرحمة تبعد الاختلاف وتجلب الائتلاف، «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك»[2] فعند مجيء الرحمة تأتلف القلوب، تنصهر وتصير كالشيء الواحد، وهي نتيجة لكل تلك المراحل السابقة.

فإذا دخلنا في الرحمة في هذه الدنيا، وأدخلنا الله في رحمته في الآخرة، فتلك هي المنزلة العلية، وذلك هو الفوز الكبير، وذلك هو الفضل العظيم.

1- سورة الفتح، الآية: 4.

2- سورة هود: 119

القرآن مصدر كل خير

هذا الخير كله -للفرد أو للجماعة أو للمجتمع أو للبشرية إذا مَنَّ الله في وقت من الأوقات بعموم الخير فيه، وليس ذلك ببعيد- أقول: هذا الخير إنما مصدره شيء واحد هو كتاب الله عز وجل، وهذا بيت القصيد.

كتاب الله عز وجل رأس الخير كله في هذه الدنيا منذ استخلف آدم، لأن ما نزل قَبْلُ هو من الكتاب، «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب»[1] فإذا قلنا، إن جميع ما في الأرض من خير سببه هذا الكتاب فما أبعدنا، لأن ما نزل قَبْلُ هو من الكتاب، وعند الله عز وجل أم الكتاب، يمحو ما يشاء من ذلك ويثبت، حسب المراحل التاريخية، وأخيرا نزل الكتاب، فما من خير عرفه الكون على يد أبناء آدم إلا وجاء على يد ما نزل من الكتاب، ذلك الذي أشير إليه يوم أهبط آدم فقيل له:

1- سورة آل عمران: 23

«قلنا اهبطوا منها جميعا فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1]، أو «فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى»[2] يحشر أعمى كما كان هنا أعمى، قال أحد المؤلفين القدماء: «إن الكافر يحشر أعمى لأنه هاهنا كان أعمى»، ومن تَلَقَّى القرآن بِعَمىً بعث يوم القيامة كذلك. «ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى» نسيانه لآيات الله في الدنيا هو عمى «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يومنون في آذانهم وقر» - أي ثِقَلٌ في السمع- «... وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد»[3] فلا يصل إليهم خبر، فلا يتأثرون ولا تصل إليهم المعلومات، فلا تظهر فيهم نتائج المعلومات.

1- سورة البقرة: 38

2- سورة طه: 126

3- سورة فصلت: 44

أقول: هذا النور، هذا الخير هو مصدر كل خير في هذه الأرض منذ آدم عليه السلام، نزل منه ما نزل، وظل يتنزل منه ما يتنزل، ويجدد تنزيله إلى أن نزل بكامله في الصورة الكاملة التي هو عليها اليوم.

نحـن والقـــرآن

والآن ونحن أمام هذا الخير العظيم، هذا الخيرِ الذي ما دخلنا إلى التاريخ إلا به، وما خرجنا من التاريخ إلا بالإعراض عنه وعدم الاهتداء به، ما صرنا إلى الحال التي صرنا فيها أسوأَ من المغضوب عليهم إلا بالإعراض عن هذا الكتاب، إلا بهجران هذا الكتاب، إلا بالبعد عن هذا الكتاب، وقد بَالَغْنَا في البعد إلى حد أنَّا أخرجناه من ديارنا ومجالسنا، حتى اللغة التي بها نزل صار بيننا وبينها حواجز، صارت شَاقَّة علينا أن نعرفها، ومن ثم صار شاقا علينا أن نعرف المراد من كتاب الله عز وجل، أَبْعدْنَا عنه، فما عدنا نلتقي به اجباريا كما ينبغي أن يكون في التعليم، لأن عدم تعلمه ينتج الضلال، ولا سبيل إلى معرفة الطريق بغير هذا الهدى، هدى الله: «قل إن الهدى هدى الله»(1) ولا سبيل إلى هدى إلا من الله وبالله.

1- سورة آل عمران، الآية: 72.

هذا الهدى جماعه القرآن، به دخلنا أولا في التاريخ، وبه أُخْرِجْنَا من الظلمات إلى النور، وبالابتعاد عنه تقلص ظلنا من جميع الأمصار التي كنا فيها سادة قادة، كالأندلس، وصقلية، وشبه جزيرة البلقان، وجنوب روسيا بكاملها، والشرق الإسلامي الأقصى، ومناطق ومناطق...

وبالابتعاد عنه أيضا خرجنا نحن في ديارنا منًّا، خرجنا نحن من ذاتنا التاريخية، خرجنا نحن من كينونتنا الخاصة، وهويتنا الخاصة، وصرنا خلقا غريبا جدا، ما عدنا الخلق الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، الخلق الذي طلب منه أن يشهد على الناس، لأننا لا نستطيع الشهادة حتى على أنفسنا، فكيف نكون شهداء على الناس؟! والمطلوب أن نكون شهداء على الناس، وما أُخْرِجْنَا من الظلمات إلى النور إلا للناس، «كنتم خير أمة أخرجت» لا لأنفسكم، بل «للناس».

<u>المؤمن في موقع الإرسال لا في موقع الاستقبال، المؤمن في موقع إرسال النور، في موقع الإشعاع، في موقع إيصال الخير وتبليغه إلى الناس، وليس في موقع التبعية، في موقع الذلة والمسكنة، في موقع استقبال الشر والويل والثبور، نسأل الله السلامة والعافية.</u>

كيف أبعدنا وكيف نعود إلى القرآن

هذا القرآن أقول: أبْعِدْنا عنه بِخُطَّة كافر دخل ديارنا، وأَبْعَدَ كتاب الله من المدارس، وأبعد السنة من المدارس، واجتهد في ابعاد العربية أيضا، ومازالت مُبْعَدَةً إلى حد بعيد، وإنه يجب الآن إذا أردنا أن نعود من جديد إلى التاريخ، وأن ندخله من جديد، يجب أن نعود إلى هذا النور، يجب أن نشرب من هذا الماء الرباني، لابد من أن نتضلع منه، لابد من أن نرتوي حتى يخرج من مسام جلدنا، لابد من أن نستدرج القرآن بين جنوبنا، نعود إليه أفرادا، ونحن نملك هذا الاختيار، ولا تستطيع أي قوة كيفما كانت أن تفصل بين الإنسان وبين القرآن وبين الإيمان، يجب أن نجتهد فرديا في أن نتمسك بالقرآن، أو كما عبر القرآن، أن نُمَسِّك بالقرآن، «والذين يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»(1) أي يُمْسِكُونه بقوة، «يايحيى خذ الكتاب

1- سورة الأعراف: الآية: 169.

بقوة »[1] أما إذا أخذتَه بضعف تفلّت منك، لأنه يتفلّت كما تتفلّت الإبل من عُقْلها.

أقول نحن الآن فعلا على موعد مع التاريخ، وإن الخير قادم يراه من يبصر، يراه رأي العين، وإن الخميرة خميرة القرآن عادت من جديد للنشاط في الكرة الأرضية منذ زمان، منذ نحو القرنين تقريبا، منذ الصفعة الأوربية العنيفة للعالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، منذ الضربات والنكسات والويلات المتتالية في العالم الإسلامي التي ما منها واحدة إلا وقامت أو تقوم بحظ في الإيقاظ ولله الحمد، فرب نقمة في طيها نعمة، ولقد خُدِمَ المسلمون خدمةً جُلّى بمجيء الاستعمار، وهذا أمر غريب، ولكنه الحقيقة أيضا من زاوية معينة، هي زاوية الإيقاظ، وخُدِم المسلمون خدمةً جَلّى بغرس الخنجر الصهيوني في قلب العالم العربي والعالم الإسلامي، لقد كان ذلك سببا في ايقاظهم من سباتهم العميق، كان ذلك سببا في أن يهبوا لرد الصفعات واللكمات، كان ذلك سببا في أن يستفيقوا، وماتزال الضربات تتوالى حتى نستيقظ فرديا

1- سورة مريم: الآية: 11.

وجماعيا، لأن اليقظة الفردية لا تكفي، ولا قيمة لها إلا بمقدارما تُحَوِّل نفسها إلى يقظة جماعية.

أقول: إذا أردنا أن نعود من جديد، وتعود هذه الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس، لابد أن نعود إلى هذا القرآن أفرادا، نعود إلى الإدمان على هذا القرآن، وإلى استهلاك هذا القرآن قبل استهلاك الخبز، لأن الجوع الحقيقي هو جوع الأرواح، إذا ذهبنا إلى الآخرة وبطوننا جائعة، ولكن قلوبنا ملأى بلا إله إلا الله على حقيقتها، خالصة لوجهه الكريم، فإننا نذهب شباعا بطانا، لا خماصا، والعكس بالعكس، إذا ذهبنا منتفخي البطون، ولكن قلوبنا ليس بها لا إله إلا الله، على الوجه المرضي عند الله، فإننا نذهب خماصا حقا، ونذهب جياعا حقا.

إن التملؤ من هذا الكتاب والتضلع منه والارتواء، ينبغي أن يكون ديدن الفرد منا، وأن يجتهد كذلك في ذريته وأبنائه ما وسعه الجهد، يجتهد على الصورة الفردية، ويجتهد على الصورة الجماعية، وذلك بالتعاون مع سواه على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ودعوة القرآن إلى التعاون على البر والتقوى تعني أن جانبا من البر والتقوى لا يمكن أن

يتحقق إلا بالتعاون، ولذلك كان الأمر الرباني: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[1].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباده الذين يُمَسِّكُون بهذا الكتاب وبما فيه، وأن يحيي أمة الإسلام بالقرآن، وينوِّر قلوبها بالقرآن، ويهديها سبل السلام بالقرآن، ويخرجها من الظلمات إلى النور بالقرآن، ويشفيها من جميع الأدواء بالقرآن، ويرحمها رحمة شاملة باسم الرحمن الرحيم بالقرآن.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت.

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما.

اللهم أحينا على ما حيي به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأمتنا على ما مات عليه. اللهم إنا نسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينا إذا كانت الحياة خيرا لنا، وتوفنا إذا كانت الوفاة خيرا لنا، ونسألك خشيتك في الغيب

1- سورة المائدة: 2

والشهادة، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيما لا ينفد، ونسألك قرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضى بعد القضاء، ونسألك برد العيش بعد الموت، ونسألك لذة النظر إلى وجهك، ونسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهرس